

4 - الحداثة الشعرية (أ)

(الحداثة) مصطلح جديد يتوزع على مجالات مختلفة في الحياة: فلسفية واجتماعية واقتصادية وفنية، والذي يعنينا منه جانبه الفني والأدبي منه بالخصوص، ولئن كانت الفنون الأدبية كثيرة ومتنوعة غير أن مصطلح الحداثة يرتبط بالشعر أكثر من بقية الأنواع الأدبية.

ويرجع أصل كلمة (حداثة) في اللغة إلى دلالة ((كونُ الشيءٍ لم يَكُنْ))¹، ولا يبتعد المعنى الاصطلاحي الغالب على الحداثة الشعرية حين يتجه نحو الدلالة على تجاوز الشعر القديم تجاوزاً ينزع إلى معاني التخلي بل الإقصاء لأنموذج القصيدة العمودية التي ضبط قواعدها الخليل بن أحمد الفراهيدي في علمي العروض والقوافي غداة القرن الثاني الهجري، وبذلك يكون مفهوم الحداثة بهذا المعنى السائد دالاً على النزوع نحو تغيير الشكل الفني، وهذا مفهوم خاطئ ولا ينسجم مع حقيقة الحداثة التي لا تعني مجرد الخروج أو التخلي عن القواعد التي وضعها الخليل، بل تعني في جوهرها إعادة النظر في أكثر ما ساد القول الشعري القديم من تقاليد حول مفهوم الشعر وغاياته.

كما أن الحداثة الشعرية لم تتعاط مع التراث كمعطى شامل موحد، بل نجدها تحتفي بكثير من النماذج الحداثية في ذلك الموروث الشعري نفسه، بحيث تبدو صورة امرئ القيس مشهداً حدثياً ما دام قد ابتكر في فنه صوراً لم يسبقه فيها أحد من الشعراء، وكذلك الشأن عند قيس بن الملوح، وأبي تمام والمتنبي وغيرهم، ولم

¹ ابن فارس: مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، 1979، ج2، ص: 36.

تأخذ تلك النماذج الإبداعية القديمة صفة الحداثة إلا لأنها أحسنت التعبير عن زمن كل شاعر، لذلك كان توجه الحداثة إلى ضرورة التعبير بما يليق بهذا الزمن الذي نعيشه لا بما عبر به الغابرون عن أزمانهم، أو بعبارة أخرى إن الحداثة هي التفكير الكلي والموضوعي بطريقة غير مسبوقة، ولكنها مندمجة مع واقع الشاعر الداخلي والخارجي، فلماذا يصور الشاعر المعاصر نفسه بطلا فوق فرسه جريا على ما قال وعاش امرؤ القيس، وهو - أي الشاعر المعاصر - يمتطي اليوم السيارة والطائرة والباخرة؟

إن أكبر محذور يعترض تقبل الحداثة عند الإنسان العربي هو ما يتعلق بالدين، غير أننا نظل نؤمن بأن الحداثة التي نقصدها لا يمكن أن تطعن في مصادر الدين...، وأن أغلب ظواهرها تتجه إلى مسائل الفكر والأدب والفلسفة والنظر بما يتصل بالذوق والميول والاختيار.

لكن توجد بعض المعوقات الحائلة دون انطلاق فكرة الحداثة في الشعر نفسه، منها غياب نظرية نقدية مواكبة، ومنها قلة الإحاطة المعرفية لدى مناوئي الحداثة بالإنتاج الشعري الحدائثي، والواقع أن أكبر إنجاز حدائثي تحقق في الشعر هو التجديد في وزن القصيدة عن طريق الخروج عن قواعد العروض المعروفة خروجاً جزئياً أو كلياً، فشعر التفعيلة الذي أبدعه الرواد في منتصف القرن العشرين بقي ملتزماً بالوزن لكنه وزن مستحدث، قوامه الجريان على تفعيلة محددة من دون الالتزام بعدد التفعيلات في كل سطر، وهو الأمر الذي سمح للشاعر بهامش من الحرية مكنه من الانطلاق والتوسع أكثر في مساحات التعبير وتقاطعات الصياغة.

وقد تضايق بعض الشعراء من المشكلة التي أحدثها شعر التفعيلة حينما اقتصر على ثمانية أوزان تبعا للتفعيلات: فعولن - فاعلن - مفاعيلن - فاعلاتن - مستفعلن -

مفاعلتن - متفاعلن - مفعولات، فحاول بعضهم بناء أنموذج يمزج بين تفعيلتين مثلما فعل السياب في قصيدة (ها هو):

تتامين أنت الآن والليل مقمرُ
أغانيه أنسام وراعيه مزهرُ
وفي عالم الأحلام من كل دوحة
تلقاك معبرُ
وبابُ غفا بين الشجيرات أخضرُ...

لكن هذه التجربة لم تلق طريقها إلى النجاح بسبب طول الوحدة الإيقاعية المتألفة من تفعيلتين مختلفتين (فعولن مفاعيلن)، بالإضافة إلى المشكلات المطروحة في القافية، فهل يجب أن يغير الشاعر فيها عند بداية كل مقطع، وهل يمكنه أن ينوع في قوافي المقطع الواحد...؟ وإذا كانت كل هذه الإنجازات الفنية قد تحققت بفعل التحرر من القاعدة الواجب اتباعها، فهل يعتبر وجوب التغيير تحرراً...؟ وغير ذلك من مشكلات القواعد الفنية التي آل الأمر بعدها إلى ظهور فن جديد متحرر تماماً من قواعد الوزن والقافية وهو (قصيدة النثر).

أما عن الأصل الذي نشأت عنه الحداثة الشعرية العربية فيرجع إلى ثلاثة تفسيرات:

أولاً: التفسير التأثري الثقافي: ويدل مصطلح المثاقفة (acculturation)

على "مجموع الظواهر الناتجة عن احتكاك مستمر ومباشر بين مجموعات أفراد تنتمي إلى ثقافات مختلفة تؤدي إلى تغييرات في الأنماط الثقافية الأولية للجماعة أو الجماعات"²، وهي آلية للانتقال الحر للأفكار والخبرات بين طرفين بطريقة طوعية

² معجم العلوم الإنسانية، دورتيه، ترجمة جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع-بيروت، الطبعة الثانية-2011، ص 119.

من غير أن يكون بينهما مانح وممنوح أو مؤثر ومتأثر أو غالب ومغلوب، فالحادثة الشعرية العربية وفق هذا التفسير ناتجة عن احتكاك العرب بالثقافة الغربية، ويظهر أن واقع التغيير الذي لحق القصيدة العربية المعاصرة يدل على تأثر العرب بالغرب وليس العكس، وهو ما أشار إليه أدونيس بـ(صدمة الحداثة) التي أفرزتها القوة الفكرية والثقافية الغربية الهائلة التي جعلت العرب في موقف المصدوم غير القادر على التأمل أو التحليل أو الفعل.

ثانياً: التفسير الاجتماعي: ويحاول أن يربط وجود الحداثة بالأطروحات الإيديولوجية الناتجة عن نمو الطبقة البورجوازية الصغيرة، وتشير الدراسات إلى كثير من الشعراء المعاصرين الحداثيين الذين انتقلوا من الريف إلى المدينة طلباً للثراء وتحسين وضعهم الاجتماعي، لكنهم لم يحققوا أهدافهم كاملة، فلا هم أصبحوا من البورجوازيين، ولا حافظوا على انتمائهم الثوري المعارض، لكنهم استطاعوا إحداث التغيير فيما ينتجون من فن.

ثالثاً: التفسير النفسي: ويرى أن الحداثة الشعرية ناتجة عن التغييرات الطارئة على طبيعة الذوق العربي الجديد، وأن ما يتميز به الإيقاع في الشعر القديم من الرتابة والنسقية لم يعد مناسباً للحاجات النفسية المعاصرة، لأن الواقع الذي أصبح يعيشه الشاعر المعاصر منحه هامشاً من الحرية الذاتية، وأضمر في داخله بقايا الانتماء القبلي أو الطائفي، ولم يعد يلتزم إلا بإخلاصه لذوقه وإحساسه الذاتي.

انتهى